

تأسيس جمهورية الصين الشعبية

التحولات الداخلية 1949-1964

في العاشر من تشرين الاول عام 1949، اعلن زعيم الحزب الشيوعي الصيني ماو تسي تونغ عن تأسيس جمهورية الصين الشعبية بقيادة الحزب الشيوعي الصيني . واتجهت حكومته إلى اتخاذ كل الاجراءات التي من شأنها السيطرة على الوضع الداخلي، وإقرار سلطة دكتاتورية متشددة باسم البرولتارياتيا (اي الطبقة العمالية). ففي المدة بين عامي 1946 و1952، قام الحزب الشيوعي بعدة حملات جماهيرية كبرى، طبقت بالترغيب تارة، والترهيب تارة اخرى، ويأتي في مقدمتها تطبيق قانوني الزواج والاصلاح الزراعي عام 1950. فقد أعطى قانون الزواج حق الاختيار للزوجة وقوض جزءاً من العلاقات العائلية التي ميزت المجتمع التقليدي القديم، اما الاصلاح الزراعي فالواقع انه بدأ تطبيقه عام 1940 في المناطق التي سيطروا عليها واستمر حتى عام 1952، الا ان القانون لم يصدر بشكل رسمي الا في تموز عام 1950. وبموجبه أعيد توزيع الاراضي على وفق معايير محددة صنف السكان القرويين بموجبها إلى خمس فئات: ملاك الاراضي، فلاحون اغنياء، فلاحون وسط، فلاحون فقراء، واجراء. كان الفلاحون الاغنياء يعملون في جزء من اراضيهم ويهجرون الجزء الاخر. اما الفلاحون الوسط فكانوا يمتلكون كل الاراضي التي يعملون فيها، اما الفلاحون الفقراء فكانوا يستأجرون كل او بعض الاراضي التي يعملون فيها وقد انشئت محاكم شعبية للمساعدة على تصنيف الفلاحين واصلاح الاخطاء السابقة. كما نص قانون الاصلاح الزراعي على مصادرة الاملاك التابعة للجمعيات الدينية . ومصادرة الاراضي والحيوانات والالات الزراعية وفائض المحاصيل الزراعية ولاسيما الحبوب والمباني التي يملكها الملاك العقاريون . كما حدد القانون املاك الاغنياء وترك لهم ما يستغلونه مباشرة، وبالتالي فان تنفيذ القانون تم على حساب الطبقتين الاولى والثانية ملاك الاراضي والفلاحين الاغنياء . وتم توزيع الاراضي بصورة تكاد تكون عادلة، ومع ذلك فأن تطبيق قانون الاصلاح الزراعي كلف اعدام ما بين مليون إلى مليوني من ملاك الاراضي.

ولترسيخ سلطة الدولة، قامت الحكومة الصينية في عام 1951 بحملات قمع واسعة ضد أعداء الثورة الشيوعية، طالت المثقفين ورجال الدين خاصة الكاثوليك والمسلمين، وأعضاء الجمعيات السرية ومناصري الحكومة السابقة، الذين لم يغادروا الصين، علما ان حوالي مليون مواطن مؤيد للحكومة السابقة قد غادروا إلى تايوان، كما قامت الحكومة بعمليات تطهير في صفوف الحزب . وفي العام نفسه، شهدت الصين ايضا

حملات واسعة ضد (الآفات الثلاث): البيروقراطية (الطبقة الراقية) والفساد والإسراف، وكل هذه الحملات كانت تصب في دعم الحزب الشيوعي الحاكم لكنه مع ذلك شعر في شتاء عام 1956-1957 بان هناك بعض الصعوبات والتناقضات التي لا بد من تصفيتها، والتي يمكن كشفها عن طريق فسح المجال أمام تدمير واستياء الناس من الوضع، فأطلقوا شعار المئة زهرة والدعوة لإبداء حرية الرأي الامر الذي أدى إلى اندفاع الطلاب والمنتقنين والعمال والفلاحين في حركة احتجاج واسعة تناولت على الحزب الشيوعي نفسه . وأعقب ذلك في السابع من تموز عام 1957 قيام حملة قمع واسعة لكل من أدلى برأي مخالف لشعارات الدولة الرسمية في النقد او التعبير . وقد اعترف ماوتسي تونغ في عام 1958 بان ضحايا مدة تأسيس الجمهورية يتراوح عددهم ما بين مليونين إلى ثلاثة ملايين .

اما الناحية الاقتصادية فقد زاد التأكيد عليها منذ عام 1952 إذ أعلنت الخطة الخمسية الاولى للمدة 1953-1957، وتم توجيه كل دعاية الحزب نحو زيادة الانتاج، فقد كان ماو يسعى بقوة إلى الإسراع في بناء الشيوعية . ففي عام 1955 قرر خلافا لرأي مستشارية الاقتصاديين إجراء تأميم سريع للزراعة، وابتدأها من ايلول من ذلك العام اذ تم استيعاب جميع الفلاحين في تعاونيات زراعية شكلت انقطاعا حاداً عن الماضي، على الرغم من أنها بقيت نسخة من القرية التقليدية واستندت إلى المساهمات الفردية، وقد حقق هذا التأميم نجاحا نسبياً على الرغم من المعارضة التي أبداهها القرويون هنا وهناك . وبذلك فان ماوتسي تونغ لم ينتقد لا برأي مستشارية ولا بالتجربة السوفيتية، وأعطى لنفسه مزيداً من حرية القرار على مستوى تحويل البلاد . وفي عام 1956 تم تأميم التجارة والصناعة والنقل . وسعى ماوتسي تونغ للإسراع في دفع الحملات الجماهيرية لزيادة الإنتاج، فيما سمي بـ (القفزة الكبرى للإمام) ضد ما عرف بـ (الانحراف اليميني) . وقد أعلن عن هذه الحملة رسمياً في أيار عام 1958، وتم البدء بعمليات مكثفة لحفر القنوات وبناء السدود والخزانات وإعادة التشجير من خلال تشغيل الفلاحين بالسخرة، رافق ذلك حملات مكثفة لمحو الأمية والتعميم الفوري للتعليم الابتدائي، وكل هذه الأمور تمت بدون تمويل مركزي .

كما أطلق شعار (السير على قدمين) أي (الصناعات الثقيلة والريف الصيني) وكان هذا الشعار مركزياً بالنسبة للقفزة الكبرى للإمام، التي استندت إلى استنفار كبير للأيدي العاملة . كما دعت السلطات إلى زيادة حجم التعاونيات الجماعية، التي انتقلت خلال ستة اشهر من حجمها المتواضع (15-20 عائلة) إلى حجم اولى الكوميونات الشعبية الضخمة مثل كومونة (سبوتنسيك) في هنان . وفي عام 1958 تم تنظيم الزراعة

برمتها في بضعة أسابيع في كومونات شعبية ضمت الواحدة منها ما بين (200-400 شخص). ومما شجع على ذلك هو تطبيق مجانية الحاجات الأساسية: المواد الغذائية، المطاعم، التعليم، الطباعة، ولكن في الواقع أن الفلاحين أنهكوا، فقد أجبروا على التخلي عن أراضيهم الصغيرة الخاصة وأدواتهم الزراعية وأحيانا عن أواني المطبخ لإنشاء أفران صغيرة لصب الحديد وكان العمل بهذه الكومونات يتم بشكل جماعي ومستمر.

وقد تسببت الدعاية حول القفزة الكبرى بتسميم القادة انفسهم، الذين اندفعوا إلى مزيد من الاوهام في زيادة الإنتاج بهذه الطريقة المنهكة . فما لبثت الدورات التفتيشية الأولى لعام 1958، حتى انكشفت الكارثة الكبيرة في تضخيم حجم الحاصلات، وإهمال الحصاد وتركه في الحقل من قبل الفلاحين المستغربين للعمل في الصناعة الريفية . وخوف الفلاحين المجبرين في كل مرة على تسليم كمية اكبر من الحنطة . وقد دفع ذلك إلى محاولة التراجع من قبل بعض أعضاء الحكومة غير أن الصراع الداخلي في الحزب أدى إلى إطالة مدة القفزة الكبرى وقد أدى انتقاد وزير الدفاع الصيني بينغ ديهوي، في تموز عام 1959، تجاوزات الحملة الكبرى، إلى أقالته من منصبه، وحل محله لين بياو الذي أصبح ولي عهد ماو. ومما أدى إلى زيادة المخاوف من تقادم نتائج القفزة الكبرى هو توقف الدعم السوفيتي المفاجئ في عام 1960 ونشوب الخلاف العقائدي بين الدولتين.

وعلى الرغم مما شهده عام 1958 من محاصيل زراعية جيدة، نتيجة ظروف مناخية مواتية، لكنه منذ عام 1959 بدأت تتكشف الآثار السيئة التي ترتبت على حملة القفزة الكبرى للإمام، فقد خرج من الريف نحو 15 مليون مواطن باتجاه المدن، مما سبب زيادة في حجم سكانها . كما أخذت المحاصيل الزراعية بالتناقص وفي عام 1960 اتجهت الأزمة الغذائية إلى مزيد من التفاقم، فقد تناقصت الإمكانيات المادية بالنسبة لكل فرد (20) بالمئة مقارنة بعام 1957، إما الصناعة فأنها بعد أن بولغ بارتفاع نسبتها تراجعت إلى (43) بالمئة عام 1961، كما انهارت العديد من المشاريع الاعمارية التي أنجزت على عجل خلال حقبة القفزة الكبرى. وعمت المجاعة خلال هذه السنوات الثلاث 1959-1961 حتى في المدن الكبرى، حتى منعت اعلانات النعي وشارات الوفاة كي لا تلفت أنظار الزائرين، وفي المزارع الاصلاحية وحدها بلغت الوفيات فيما بين عامي 1959-1962 نحو اربعة ملايين شخص، وبشكل عام فان حملة القفزة الكبرى تسببت بوفاة ما بين (13-30 مليون شخص)، وبذلك فانها تعد اكبر كارثة حلت بالصين خلال القرن العشرين.

الثورة الثقافية 1965-1976

أثرت عوامل عديدة في اتجاه ماوتسي تونغ نحو تنفيذ الثورة الثقافية التي كانت نتاج فكره، منها انه خشي أن تساعد انتقادات المثقفين للوضع وله شخصيا، لاسيما بعد كارثة القفزة الكبرى وحركة التطور الواسعة في صفوف الحزب على زوبان الثورة الاشتراكية عبر تتابع الأجيال. ولاسيما مع تدهور العلاقات مع الاتحاد السوفيتي واحتمالات الحرب مع الولايات المتحدة في فيتنام وحرب الحدود مع الهند، وما ترتب على ذلك من معارضة لسياسات الحزب، كل ذلك قاد إلى تنفيذ الثورة الثقافية.

استهدفت هذه الثورة القضاء على الفكر الذي لا يتفق مع الفكر الاشتراكي الذي رآه ماو، ولإسناد هذه الثورة أنشأ ماو في عام 1966 الحرس الأحمر، الذي ظهرت أولى وحداته بين طلبة جامعة بكين . ثم ما لبث إن تشكلت وحدات منه في مختلف أنحاء الصين، والواقع إن هذا الحرس كان أداة سياسية فعالة يستخدمها ماو لترويع خصومه ومعارضيه، واستطاع بالفعل ان يوجد جواً، لا يجروء احد في غماره، على معارضة آرائه او مناقشتها.

وقام هذا الحرس بحركة تطهير واسعة شملت أمين الحزب وأمناء تحرير الصحف والكتاب والقائمين على شؤون الدعاية ومديري الإذاعات والمعلمين وأساتذة الجامعات ولاسيما أن الدراسة أوقفت في الجامعات والمدارس . وشملت أيضا المسرحيين والأدباء والفنانين وكذلك مدراء المصانع ، في حين إنها لم تطل ضباط الجيش الذي أصبح في ظل هذه الثورة منظمة سياسة فعالة، ، وفي المجال الاقتصادي حاول زعماء الثورة توفير الاستقرار في الحياة الاقتصادية وكانوا حريصين على عدم المساس بالإنتاج.

ولكن بعد إن أصبحت البلاد في حالة فوضى، بسبب نشاط الحرس الأحمر في ربيع 1967 قرر ماو الاعتماد على جيش التحرير الشعبي في تحقيق أهدافه واستعدادا للصراع ضد خصومه وتمير آرائه أصبح لزاما على الجميع دراسة أفكاره، سواء جنود او مواطنين عاديين، وأصبح كل فرد يحمل كتيبا يتناول آراء واقتباسات من اقوال ماو يدعى ب (الكتاب الاحمر) الذي يقرؤه جميع الناس في السيارات والحافلات والقطارات العامة ويقرؤه العمال في المصانع والفلاحون في الحقول والمزارع وحتى إثناء تناول الوجبات الغذائية.

وقد اسند جيش التحرير الشعبي ماو في تحقيق اهدافه بكفاءة إلى جانب تشكيل اللجان الثورية من الطلبة أيضا، والتي تناولت هي والحرس الاحمر، في حالات كثيرة، على المؤسسات العلمية والشخصيات الادبية والفنية وجرى القتل المعنوي لكثير من القيادات في البلاد، غير ان ماو منع الطلاب - اعضاء اللجان الثورية من التعرض لعلماء الذرة ايا كانت هويتهم . وفي ذروة الثورة الثقافية جرى تفجير القنبلة الهيدروجية في عام 1967، وقبل ذلك في السادس عشر من تشرين الأول عام 1964، فجرت الصين القنبلة الذرية، وبعد هذه الانجازات العلمية تعزز موقف ماو مما جعله يدحض آراء المنادين بضرورة الاعتماد على الاتحاد السوفيتي.

وعلى الرغم من أن ماو تمكن من تعزيز سلطته وإقصاء السياسيين المناوئين له ومنتقديه من المثقفين، ومع ذلك لم تنته الثورة الثقافية، فقد ظهر الصراع بين العناصر الجديدة التي تسلمت السلطة . وبدأ لين بياو الرجل الثاني في الدولة، في التآمر ضد ماو، ووصل الأمر إلى حد اتهامه بمحاولة تدبير انقلاب عسكري ضد ماو في عامي 1970 و1971، وأنتهى مصير لين بياو بين اشاعات القتل او الانتحار، او مات في حادث طائرة في منغوليا في ايلول 1971 في محاولة هروب مزعومة إلى الاتحاد السوفيتي. وتبع ذلك عمليات تصفية استمرت حتى وفاة ماوتسي تونغ في التاسع من ايلول عام 1976، وتم القضاء على عصابة الاربعة التي كانت بقيادة زوجة ماو. وحدث بعد ذلك تحول كبير في سياسة الدولة إذ تم دحض سياسة الثورة الثقافية التي أدت إلى عداوة واسعة النطاق للثقافة والمثقفين، وفي ايلول 1976 قررت اللجنة المركزية للحزب التخلي عن الثورة الثقافية وتبني (التحديثات الاربعة) الزراعة، الصناعة، العلم والتقنية، والدفاع.